القسم الثانى

تاريخ جزيرة صقلية من أقدم عصورها

الى انهيار السلطة الفاشيستية

الفنيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد توطن شعب الصيقول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها واسس ذلك الشعب المدن والدساكر واصلح الارض ولم يقع اي تصادم بينه وبين رواد المدنية الشرقية بحارة فنيقيا من بنى كنعان وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة انوار المدنية الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية والمبادلات التجارية والتعارف والتئالف حول تبادل المصالح لأحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيها فى سبيل التقدم الانسانى، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نيران الاستعمار .

سلك الفنيقيون هنالك مسلكهم فى بقية الحوض الغربي من البحر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مراكزهم التجاريه العمرانية ومنها « معطية » وبانورم « بالرمة » وسلديس .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوي المدنية الزاهية الزاهرة فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقي الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل سرقوسة سنة ٧٣٤ ق م وقطانية ، خمسة اعوام بعد ذلك ومسينا حوالي ذلك التاريخ واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتي عام الى سنة ٥٣٦ ق م .

تدخل قرطاجنة : تضاءل شان الاغريق حيث كانت بلادهم ميداناً للانقسام والنضال حول الحكم والمناصب و ما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية فى ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدراً لامعاً فى سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم فى بلاد الشمال الافريقى تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيداً لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية واما أنقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ و قد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتي سردينيا وكرسكا .

ولقد كان النزاع يومئذ مستفحما بين الاغريق و الفنيقيين فى صقلية واصبح العنصران يتنازعان هنا لك البقاء . فاغتنمت قرطاجنة الفرصة وجهزت اسطولها يحمل جنداً عتيداً تحت قيادة السبط « مالى » . وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفنيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على البلاد لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمتيه . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائبا الى قرطاجنة .

لم تكن الخيبات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة وارادوا قبل ذلك ان يامنوا شر تدخل اجنبي في الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لا يجدوا معينا لهم في البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك الفرس اكسيريس وتحالفت فى نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتالق نجمهم بعد فى سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة عملكرض ابن ماغون البرقى

وسيرته نحو صقلية فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان نصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؛ اما القائد فقتل واما الجند فاسر واما الاسطول فتدمر .

وقد كانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها ومنعتها فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك وفى نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين فى وقعة سلامين الشهيرة سنة ٤٨٠ ق م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالته بعد لأي من الملك جيلون الاغريقى الصقلى وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدى الصنم ملك . . .

ان كانت الخيبة اليمة فقد كانت العزيمة عظيمة؛ وما عتم القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امرة حنبعل بن عملكرض (هو غير حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدوهم الامل وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار فنزل حنبعل الجزيرة ، واختبرها بجيوشه الجرارة ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعاً ، فذبح فى المكان الذي قتل فيه ابوه عملكرض ثلاثة الاف من مقاتلتهم الماسورين ؛ ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو المثلث من الجزيرة ، ونال الفينيقيون المقوطنون هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس اليوناني ، ملك سرقوسة ؛ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم فى نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؛ فما كانت تنقضى مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشنها على القرطاجنيين والفينيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب

معالمهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط هملقون محاولة جريئة للاخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن انقاذه فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق فى عدة مواطن وكاد يستتب له الامر نهائيا لولا ان مددا عظيماً جاء الاغريق من بلاد اليونان ام الوطن فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانتحر السبط — هملقون — مقلعا عن الاكل وهذه اول مرة في التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لاعتصاب الجوع الذى اشتهر فيما بعد فى تاريخنا الحديث باعتصاب الزعيم الارلاندى « ماكسويلى » شيخ مدينة يورك وباعتصابات زعيم الهند « غاندي » المتوالية .

وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ ق م كامل ما امتلكته فى الجزيرة لفائدة الاغريق .

لكن المحاولة الخامسة لم تبطىء طويلا ؛ فجهزت قرطاجنة القائد « ماغون » وارسلته صحبة جند ضخم واسطول عتيد فامتلك الكثير من السواحل الصقلية وثبتت هنالك اقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صدر بعل وعملكرض مدداً ؛ والقت قرطاجنة يومئذ فى الميدان الصقلى احسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا فى الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ ق م اذ استتب لهم الامر بكامل الجزيرة لا بواسطة الحرب والقتال بل بواسطة انقلاب سياسي خطير حيث ان الملك الاغريقي « هيارون » اذرای نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره دخل تحت حماية قرطاجنة وتعاقد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هي الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرات مثلما رات قرطاجنة

من قبل ان امتلاك صقلية ؛ حجرة اساسة فى بلوغ امانيها في التوسع والاستعمار وان السلطان الروماني لن يتحقق فى البحر المتوسط ، ما لم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب البونيقية بين روما وقرطاجنة فدامت ١١٨ عام ؛ في ثلاث دفعات متوالية ؛ ابتدات بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتحطيم قرطاجنة واعدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ ق م .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى ؛ وهي الوحيدة التى يهمنا امرها فى جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت — حسب التعبير العسكري الحديث — راس جسر معده الطليانيون في الارض الصقلية ؛ واذ كانت روما قد شبت وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية راى القرطاجنيون ؛ كما رأى حليفهم الاغريقى ملك سرقوسه ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛ فاستنجد اهلها ببني جلدتهم الرومانيين وكان هؤلاء لا ينتظرون الا مثل هذه الاشارة ، فارسلوا عشر بن الفاً من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل ابيوس كلوديوس نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا واطردوهم عن ساحتها فاعتصموا ببعض معاقلهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقي هيارون فاضطروه للالتجاء الى معقله فى سرقوسة ثم فاوضوه فى نكث عهد القرطاجنيين وقد راى رأي العين قوة شكيمة الرومانيين وحسن نظامهم واقتنع بان الخسران سيكون نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة فقلب لهم ظهر المجن واعلن محالفة رومة واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق . م ، ورجع القائد حنون القرطاجني لوطنه مذءوما مدحوراً فانهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رات قرطاجنة يومئذ والحق مارات ، ان المسالة اصبحت تتعدى صقلية وان الهدف الذي يرمي اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ، وان الحرب ان غادرت الارض الصقلية فلكي تحل بويلاتها فى الارض الافريقية . ومن اجل ذلك رأت وجوب التضحية باعز عزيز فى سبيل الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من أجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة اقريجنت ، وتصادموا حولها مع جند الرومان تصادماً رهيباً ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة ، فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقي من اهلها حياً ، و كانوا زهاء الخمسة والعشرين الفاً .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة التي أظهرت بهذه المناسبة ثباتا عز فى التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر بعل سنة ٢٥٠ ق . م ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولأمداد معاقلها الباقية هنالك بالنجدات اللازمة ؛ فنال اول الامر فوزاً وجيزاً ، ثم دحره القائد الروماني ميتيلوس آخر الامر و كسره شر كسرة ، وقتل من جنده اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع القائد المندحر لقرطاجنة حيث كان ينتظره الاعدام صلباً .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد رجالها آخر الامر ، وعندما نضب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم نهائياً وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكد تخفق المحاولات النهائية اليائسة التي قام بها القائد عملكرض البرقي سنة ٢٤٢ ق . م ؛ حتى انسحبت قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى .

ولقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت

فيها تباعاً زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومذخراتها ؛ كما كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذي ازداد فيما بعد طيلة قرون عديدة نمواً ولمعاناً .

الحكم الروماني — اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما ، تابعة لها في حياتيها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءاً من تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطوية وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها في مهاوي الانحطاط .

شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فنالها من جراء ذلك خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية الفظيعة ، فتنة اوكتافيوس وبومباي ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لأعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقيين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هي الوحشية بعينها رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مراراً ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد ساداتهم ، سنوات ١٣٩ و١٠٤ ق . م و٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الروماني .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم في عصر الانحطاط والاضطراب ؛ من فتن في الداخل ؛ وتدهور في الاخلاق ، وانحطاط في النفوس واخيراً السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اي الوحشيين .

صقلية الرومية — عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقي ؛ ونسفوا باعانة البربر في سنوات قليلة كل معالم الرومانيين بهذه الارض مادية كانت او معنوية ؛ اصابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصريق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الوندالين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعادوا الكرة عليها ، واستخلصها القائد بليزار من ايديهم نهائياً سنة ٥٣٠ (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية اصابها اثناءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقي ، من فتن واضطراب ، وفساد في الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هي القانون العام الذي يخضع له المتوظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهي اشبه شيء بالخراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧ م .

صقلية الاسلامية — توطد سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتي تفصيله ، وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكنى والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمروا بساتينها واحيوا حقولها وأسسوا المدارس والمساجد وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة في اوروبا ، وادخلوا فيها كما رأيت في القسم الجغرافي ؛ اشجار الزيتون والنخيل والليمون والبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك في آخر الكتاب رغماً عما كان يقع بينهم من

(١) في سنة ٥٧١ ازدان العالم بازدياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ ايام حكم كسرى انو شروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك الحبشة ، صاحب الفيل ، يحاول فتح مكة لتحطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت رب يحميه .

فتن واضطرابات ، ورغم الوقائع الحربية التى كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين ممدنين ، مدة ٢٣٣ عاماً هجرية (٢٢٤ عاماً ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هجـ . ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م الا ان نفوذهم ، بقي عظيما قوياً فى الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم عنها ، وكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ويشيدون المعالم والمعاهد ؛ فكانوا يومئذ يشتركون فى حكم الجزيرة اشتراكا فعلياً ، حتى انه ليكاد يتقرر بان ازهى وازهر عصور المسلمين فى صقلية انما هو العصر الذي عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثي عهد بالمدنية ، سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتحلوا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا فى دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يؤمئذ دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة فى طريق الضعف والانحطاط والتدلي طيلة ١٩٣ عاماً ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الديني ، فاخرج الامبراطور افريدريك الالماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الافريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت هماً وكمداً .

وهكذا أقام المسلمون من اهل الشمال الافريقي بالارض الصقلية بين حاكمين ، ومشاركين فى الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاماً : تفصيلها بالتاريخ الهجري :

مدة الحكم الاسلامي (٢١٧ ـ ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النرمانى (٤٥٠ ـ ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمان — النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اي الشمال

قوم انحدروا من اعالي اروبا ، وخاصة من قطري النرويج والدانمارك ، نحوجنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادي على بلاد الشرق الاروبي وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » Rous فتوطنوا السهول حوالي نهر « دنيابر » وعمروا مدن سمولنسك وكياف وغيرها من شهيرات المدن التي سارت بذكرها الركبان خلال الحرب الاخيرة ؛ ثم توغلوا في الارض ميممين شطر الجنوب الشرقي مقتحمين امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينيه ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدامهم بالشرق الاروبي ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاروبي ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب في جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر السين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخريب معالم ، وهتك حرمات لا يراعون في مخلوق الا ولا ذمة ؛ وابتدأ ذلك الخطب الوبيل حوالي سنة ٨٠٠ ، عندما كان الامبراطور شرلمان يتولى امر امبراطوريته الغربية ، وعندما كان ابراهيم بن الاغلب يؤسس في افريقيا دولته المستقلة .

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد اوقف تيار هجرة النرمانيين الى بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم بذل في سبيل تحقيقها غالي الثمن ، واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز الى حين .

اما شارل الاصلع ملك فرنسا ، فقد أخذ يحذو حذو الانكليز ، ويشترى بالثمن الفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانيين من بلاده .

ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل

السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدأ من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ مثلا له في حطته ودناءته : سمح لهم مقابل فك الحصار عن باريس بنهب مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا تسل عما وقع هنالك من فظائع واهوال ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيراً تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف نهر المانش ، وهي التي اتخذت منذ تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نرمنديا » وهي من ازهر وابدع جهات فرنسا ، وفي مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ، فتأقلموا في البلاد وانتهى امر عدوانهم.

الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثراً ؛ هي غزوتهم لجزيرة صقلية وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نرمنديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها التي لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز

---

(١) كان من نتائج اعمال النرمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها هيأة « السادة » الاقطاعيين ؛ واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛ فأخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار المنيعة والخنادق العميقة ، وكلما تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته لتلك الجموع ويقودها في الحرب مقابل طاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع مرور الزمن حتى اصبحت عبودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ومن جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتفاقم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى اصبحوا اشبه شيء بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعلا وبتر علاقاته مع الملك ، وامتلات القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الممجة .

سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها فى موقعة هاستينق التي كانت اعظم انتصار تحصل عليها النرمان فى تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم فى مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف والفوردات وكبار الامراء ، فطبع بلاد الانكليز بطابعه الخاص الذى لا يزال الى يومنا هذا موجوداً .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النرمان فى الجنوب الاروبي ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفى سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجي (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتحطيم آخر مقاومة

---

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التى شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتي تعرف بالحروب الصليبية . فقام المسيحيون في كامل البلاد الاروبية يحدوهم التعصب الاعمى تحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوربانوس الثاني ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط الترك والعرب ، فاقتحم الصليبيون المسجد ، وذبحوا فيه وفيما حواليه سبعين الفاً من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كالاودية بين الازقة والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامي صلاح الدين الايوبي بيت المقدس من الصليبين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران قرطاجنة . وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصى سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل النصارى فى بلاد الشام بايدي المسلمين ، وبذلك انتهت المعامع الصليبية التي لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مايتي عام فى ثمانية حملات .

حربية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير روبير ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه فى ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولي .

تولي الملك فى صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثاني الحكيم ، وكان فى اعماله وتصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة في عهده اوج عزهـا ومنتهى سؤددهـا ، ونال من البابا سنة ١١٣٠ لقب « ملك الصقليتين » .

مملكة الصقليتين — كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمالي مدينة نابولى ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيانها الذاتي ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد الطليانية .

لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك رجار الثاني الآنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعـلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التي بثت عـلوم المسلمين في كل انحاء ايطاليا ، وبقية البلاد الاروبية وكانت عن حق اساس النهضة الاروبية الحديثة

الحكم الجرماني — لكن صقلية النرمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤ تحت سيطرة اباطرة المـانيا من عائلة السواب الجرمانية واصبحت قسماً مـن تلك الامبراطورية التي تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افريدريك الثاني ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسـات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اروبية فى عصره (١٢٢٢ - ١٢٥٠) وكان بـلاطه الملـكي في بالرمة اشهر بلاط فى بلاد اروبا ، وقد عمر الدوله مدارس ومعالم ، واختط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسيأتيـك شيء من تفصيل حياته الغريبة .

اخراج المسلمين — الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية عـلى صقلية قاست

— ولا تزال تقاسي — من جرائها الامرين ؛ ذلك انه اراد ان يوحدها في المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة الاسلامية القليلة التي بقيت بها ، فاركب سائر المسلمين مراكب النرمان ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا واكثرهم مدنية ؛ واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت فى الانحطاط والتدلي عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت اوصالها تتفكك وتطاول الادعياء عليها فانهار بنيانها ، واغتنم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار فافتك الدولة من ايدي النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسى شارل دانجو شقيق الملك لويز التاسع المعروف باسم القديس لويز الذي حارب المستنصر بالله الحفصي فى الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة .

وانه لمن غرائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت فى صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افتكت البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها .

مذابح صقلية — كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهداً ثقيل الظل غير مرغوب فيه . فالملك شارل ابتدأ امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فجرح احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة واخذ يستحوذ ظلماً وعدواناً على املاك الرعايا ويوزعها على رفقائه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين في وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم « صلاة العصر الصقليه » «Vepres Sicilienne» ذلك

لانها انفجرت يوم عيد الفصح فى سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هي قرع نواقيس الكنائس ايذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما ثقفوهم ؛ وعلى الاخص في مدينة بالرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افظع واقسى ما رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحنادى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق فى الادب على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك في سائر جهات الجزيرة وعم بها الخراب والدمار واستنجد الصقليون بعائلة ارغون الحاكمة فى بلاد الشرق الاسبانى ، فانجدتهم ضد الفرنسيين، الذين ثبتوا في الجنوب الايطالي ، وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي يتخبطون في دياجير الدسائس والفتن والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسباني — ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة اراغون فيما كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٢) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي ، فمحقوا خيال

---

(١) سنة ١٢٩٩ ، استقل الامير عثمان التركي في قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشأ على انقاض المملكة السجلوقية الواهية ، السلطنة العثمانية الكبرى التى شغلت كامل التاريخ الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) في هذه السنة اعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان هد اركانها الطاغية التتري تيمور لنك ، في وقعة انقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛ حيث سقط المجاهد العظيم بايزيد الاول اسيراً ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام .

الحكم الفرنسي فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء الارض ، ودام ذلك الفساد نحواً من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات ارض الجزيرة وانمحت منها معالم المدنية التي شادها المسلمون هنالك والنرمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليتين ، وما قضوا على آثار الاضطراب القديم الا حوالي سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفو نسبي خلال مائتي عام ؛ اخفقت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمات لم يقم اثناءها اي اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولها بعض ملوك البربون .

الجمهورية — انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهبت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها في مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوني ، شيخ مدينة نابولي ، واعلنوا اعتناقهم تلك المباديء السامية والخلابة ، مباديء اعلان حقوق الانسان ، والتساوي بين عامة البشر ؛ وان لا حكم في بلاد الا للامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .

انما حركة الرجعيين كانت قويه عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان

---

(١) خلال هذه الحوادث في ٢٩ من شهر مايو سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث التاريخي الجسيم : استيلاء السلطان العثماني محمد الفاتح ـ قدس الله روحه ـ على مدينة القسطنطينية العظمى ، ودخل الاسلام اوربا من جهة الشرق واستقر بها راسخاً متينا الى يومنا هذا والى ان يرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث .

الكنائس وامراء الاقطاع ورؤساء الطوائف امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم ومجادهم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمراً واشتروا باموالهم جماعة من اللفيف والرعاع يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيداً من قبل الاميرال الانكليزي الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالد ومحطم اسطول بونابرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف رأس وسجن منهم نحو الثلاثين الفاً ونفى من الاوض حوالي السبعة آلاف نسمة .

بونابرت — تدخل نابليون بونابرت في المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق فى الغرب الاروبى ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التي لم تبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكا على دولة نابولي ؛ ولقد حاول ملك نابولي الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولي تحت امرة بونابرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة الفرنسية بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .

لكن ايام جوزاف بونابرت لم تدم بمملكة نابولي طويلا ، فاندحار شقيقه نابوليون وانسحابه مرغماً من ميدان السياسة الاروبية قد جعل عرشه واهي الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الحلفاء ولا الاستنجاد بالنمساويين شيئاً ؛ ونادي بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فرديناند ملك صقلية الى الارض

(١) كان السلطان محمود الثاني العثماني يقاسي ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد العرب ، التي اخمدها بشدة طوسون بن محمد علي والي مصر (سنة

الطليانية واعاد « مملكة الصقليتين » سيرتها الاولى ، وأرجع لأصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت فكرة الجمهورية في نفسه اثراً فسادت جمعية « الكاربوناري » اي الفحامين السرية واخذت تفتك بالظالمين وتبطش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع البرلمان الشعبي لأول مرة في مدينة نابولي .

عهد الظلمات — اغتنم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية ومعقل المستبدين فامدته بجند عتيد دخل على رأسه محارباً جنود الحرية فدحرهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد وارسل الى الموت والى التعذيب وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بئيسة دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل وايام ابنه الذى خلفه فى الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ — ١٨٣٠) (١)

١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعدم فرق الانكشارية الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد علي باشا في مصر واقتحامه بلاد السلطنة حتى قونية ؛ وحرب اليونان وتحزب فرنسا وانكلترا وروسيا ضد تركيا ؛ وتخريب الاسطول الاسلامي فى معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق فى سائر اعماله ؛ واخذ تدهور السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اروبا وبمساعدة سائر العناصر المسيحية في البلاد .

(١) كان يتولى ملك فرنسا الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن فى خنق الحرية

وكذلك ايام فرديناند الثاني بن فرنسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده في محاربة الحرية والاحرار وبطش بطش جبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ـ ١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشتت شملهم .

انما . هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل الداوي ؟ كانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفظاعتها متوالية ؛ وخرابانها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدي — ما مآل الظالمين الا السقوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار ؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل في نسف قلاع الاستبداد ؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفظاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضطهاد .

وضيق على الناس حتى اخذت بوادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربي يستطيع الثبات ؛ فارسل جنداً وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (١٤ جوان عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك النصر لم يغن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة في ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوماً من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(١) في ٢٤ فيفري من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التي ما عتمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية ، نظراً لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجاع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث

ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب نحو الاحراز على حقوقه ، هو غاريبالدي الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرنسوا الثاني حتى الجأوه للفرار صحبة آله وذويه .

وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امرة الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيها الاكبر « كافور » دولة فتية فامدت الثوار الغاريبالديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبثت فى البلاد دعاية نشيطة فى سبيل الانضام للوحدة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع فى صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضام للوحدة الطليانية .

الحكم الطليانى — انما لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابعة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاتاوات الباهظة حطمت جهود الشعب ، واضطرته لاعلان الثورة مراراً ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم الثوار مراكز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران ؛ ثم نكلت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني ؛ وضاقت على الصقليين الارض بما رحبت ، فلجأوا الى الهجرة افواجاً نحو البلاد التونسية او امير كا الجنوبية وغيرها من البلاد ، وشارك الصقليون الطليانيين فى اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منيليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذى انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم فى اعتدائهم الاثيم على ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم فى الحرب العامة الماضية وفي الاعتداء الثانى على بلاد الحبشة وفى الحرب الاثيمة الاخيرة .

انما لم تنل صقلية اثناء كل ذلك سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم

الفاشيستى ، اي اصلاح جوهري يغير نظامها الاقتصادي الاقطاعي ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزاً اجتماعيا معقولا بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثاني في المصنع فكان الصقليون يتأففون من الحكم الطليانى انما يعجزون عن خلع نيره والثورة في وجهه

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان والطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد ورقة الاستعباد. وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض فى ايطاليا حتى ابتدأ رجال صقلية الاحرار يفكرون في مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال اداري واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤددها ايام المسلمين والنرمان .

ولعل حركتهم هذه سائرة فى طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم فى اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها فى العشرين من نفامبر الوالي حتى اصبحت شبه استقلال داخلى .

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذى ذاق مرارة الاضطهاد قروناً مديدة ، والذي تربطنا به ذكريات عديدة ، عهداً جديداً كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزيز الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول في كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر في العالم السلام وان تنتهى الشحناء والاحن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويها وضعيفها كبيرها وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون فى ميادين الثقافه والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .